زعيم نصّار

الحياة في غلطتها

AL-RAWSAM
الرّوسم
للصحافة والنشر والتوزيع
قصائد

الحياة في غلطتها

قصائد

الكتاب: الحياة في غلطتها

المؤلف: زعيم نصـار

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ /٢٠١٥م

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: الروسم

للصحافة والنشر والتوزيع

بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي التجاري

هاتف: ٠٧٧١٤٢٤٧٥٩٢

E - Mail: zaeemalnassar@yahoo. com

www.alrawsam.com

الغلاف والإخراج: م. جمال الأبطح

Copy Right © AlRawsam Publishing

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه

إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
without permission in writing from the publisher

زعيـم نصّـار

الحياة في غلطتها

قصائد

إن النَسْخَة الشَبيهة لا تُخفي الحقيقي أبداً، بل إن الحقيقي هو الذي يُخفي واقع عدم وجود شيء حقيقي. إن النَسْخَة الشَبيهة هي حقيقية.

حكمة توراتية منسوبة الى الملك سليمان

نسخة ثالثة

حياةٌ على جانب النهر

على الأرجحِ السنوات التي مرّتْ في الطريقِ المعلّقة فوق الهاوية، كانت محشوّة بالأخطاء، لقد زهوتُ بها، ربّما لأنها اخترعتني شاهداً عن حروبٍ لن تنتهي، عن رحلةٍ لعابرين ذهبوا لمدينةٍ ضائعة، عن معارك دينية يمقتُها الله، عن ثورات آمنت بالخرافة، عن حكايةٍ يختلطُ فيها الواقع والخيال، العقل والجنون، الصورة والحدث.

ما هذه الغلطة؟ منذ ثلاثين سنة، تمرّ أيّامي، تتعثّر بين الصخور في الوادي. البرقُ الذي مرّ بقلبي كان عمري.

على الأرجح ستبقى حياتي مثل عجلة تدورُ، تدورُ حتى أضع حداً لها.

– ز –

في الرابع عشر من تموز يكتبون حياته في حجرة المصائر ويحتفلون، يقولون: في مصادفةٍ غامضةٍ لا نظير لها، صارت له حياة، ولأطفالٍ معه هو

أبٌ وأخ، ومع التي في سريرهِ ابنٌ وزوج، نام في حريرٍ مدمّى، حياتهُ خطأٌ لشخصٍ آخرَ، يُغريهِ بآخرةٍ ويمنّيهِ بجنّةِ العبيدِ. العبيدُ يذكّرونهُ برعبِ المسوخ. كيف يعبرهم والمخالب تحيطه من كلّ مكان؟ ممراتٌ تدورُ به. كيف ينساها وكلّ خطٍ في كفّه جرح؟ جُرْحُ البيت. حتى الحارس لم يستطع بفانوسه أن ينير الطريق، لم يفتح له قلعةً كان فيها يتلاشى، يمشي من دون وميض. من دار إلى دار. من ممرّ إلى ممرّ، أتلف أيامه. يهيمُ في دورة لا رأس لها، يبحث عن مقر أخير ليرى ما لا يرون. أتلف أيامه. يهيمُ في هذه الطريق وفي تلك. لم يشرب زرقتها. سقط في التيه. استوحش. وبقي في انتظارٍ يسيرُ، لكنه لا يرى أحداً.

– ع –

ما الذي يفعلهُ؟ ما الذي يفعلُهُ عند عويلِ الأحفاد قربه؟ ما الذي يفعلهُ عند شدّ عينيه أمام الوشاة، أشباه الرجال؟ ما الذي يفعلهُ عند وضعهِ في حجرةٍ تحت المسدس الحرِّ؟ الموتُ جاهزٌ. ما الذي يفعلهُ عندما يسمعُ موسيقى الجنائز. ما الذي يفعله إذ تحاصرهُ الجدرانُ؟ ما الذي يفعلهُ عند مجيء الأرامل إلى رغبةٍ من قرنفل وجفاف؟ ما الذي يفعله إذ تسأله الأشجارُ عن جذور الشغف المفقود؟ ما الذي يفعلهُ حين لا تصله رسائلُ من الأسوار، من البرق أو الطريق؟

-٣-

هل أبقى بلا فعلٍ أُحصي الأسماء؟ بلا قيثارةٍ أهبطُ إلى الطريق أنتظرُ عاصفةً من صقورٍ تأخذُ السواقي من بداياتها، حتى لو أضيّعُ كلّ الأشياء.

-٢-

أخرجُ من المدينةِ، التي كانتْ حياتها أشبه بلافتةِ حربٍ غامضة. أهيمُ. أهيمُ، أتّبعُ قيثارةً ضائعة، أُدير ظهري للصحراء. صحراءٌ وراءَ الكلمات. أحصي أفاعيها، أهبطُ في كتبٍ خفيّةٍ في كل طيّةٍ منها، كنت أشم رائحة الجنون الذي قاد لساني إلى دكة المذبحة. أرى في طريقي أشباه رجال قالوا: لم نكن قادرين على الخلاص. كم كرهنا أنفسنا، كم كانت الطريق ملتوية إلى إنقاذها. كان معنا القطيع يتيه، بغال محملة، يا للعذاب قالوا... وقالوا...

-١-

كرهتُ الأيامَ، اقفلتُ الأبوابَ، ورميتُ مكتبتي إلى النار، كرهتُ الأشياء، المعارك والطواغيت، السجون والمسرح، الممثلين والمدّاحين، القريب والبعيد، يا لعذاب التكرار، ما هذه الغلطة؟

-١-

أية حياة، أي فقدان هذا؟ متى ينزل المجانينُ من على ظهر السماء؟ أخرج إلى شرفتي وأنظر إليها، هل أصعد إلى مجرة أخرى؟ أجد قيثارتي، أجد لها كلمة، بين زغب أشقر ينتشرُ في كل مكانٍ من جسمها أتلمسُ طريقي، أنسجُ أوتاري بين أدغالها. هائماً أختطفُ الثمرة وأبحر في زورقها الرشيق، أرفع شراعه هي لا تسهم بالإمساك به. لكلِّ غيمةٍ تخترقها الصاريةُ رغبةٌ وأحلام، غرقى وجنون، في زورقها أرى أملي الوحيد أنتظر عاصفةً تهبُّ على النهر. البلورُ ساقٌ. البريقُ عيونٌ. الكفُّ فخاخٌ للطير. المرجانُ شفتان. الريحُ نسيانُ طرقٍ في موجةٍ زرقاءَ. أصابعُ السماءِ تمسكُ ريشَهُ وهو يطيرُ. الهدهدُ وهمٌ، فخٌّ لتضليلِ العشّاقِ قبل الإنباءات التالية:

-٢-

لم أهملِ النظرَ إلى قيثارتي لهذا فكرت فيَّ طويلاً وفاجأتني بالكلام.

-٣-

قلبي يقوى على التحليق، صقر جائع ينهش كبد الغيب.

-٢-

في كل ليلٍ أسمع لحنها، أطوي الأشرعة، وأندفع في أعماقها، أعماقها ظلام، لأشرب الصوت.

-٣-

قيثارتي وأنغامها في مجرة أخرى، فلماذا لا أنثر روحي على الكون؟ وأهيم من أين إلى أين.

- ي -

يقف في الطريق أمام مدينة الشك فوق غيومها يرى نجوماً صارخة، بلا أمل يقف طويلاً أمام لهيبها، يملي أحلامه على نافذة في شوارع اللغة، يصاحبه أحد الحائرين، يشك في تأملاته، يشكُّ في الفرق بين حشائش المستنقع وحشائش الفضاء، يشكُّ في ضوء الزيتونة، يشكُّ في وعوده ليمام الظهيرة، يشكُّ في كلماتٍ عن غربان تتمشى في منازل القمر، يشكُّ في عربات تحمل تفاح الحرية. في مجرّةٍ ما يرى جثثاً مدفونة في الغيوم، قبورها عالية. وغابتها مقفلة، فمن أين يدخلها؟ ربما هناك طريق ثالثة. أين؟

-١-

جاءتْ عاصفةٌ سوداء على قيثارتي، لم تكن أوتارها مستسلمة للذبح.

أصابعي تمطر نغماً على لهب النار. نار لفرق الموت. بأمل عنيد، أعزف، أعزف لشهبِ الشكّ حتى تخمد النار، تبرد، تبرد فأختفي هائماً وراءها.

- م -

في الطريق إلى حانة الضباب، إلى حانة الصحو، إلى فتيان القلعة، محو هناك، لا طريق في الميدان، لا طريق له، لا طريق لقيثارة ضائعة، سوى العناكب التي تمتص ضياء الكلام، لا طريق للشاطئ الذي يمسك نجمته، لا طريق لقمر في دمه، سيبقى في طريقه حتى يسقط التمثال الخفي.

تطيرُ بهِ أجنحةُ الندم، عين عليه أشباه الرجال. هم يعلمون ذلك. لذلك سيبني قرية في كأس الجنون ويرى أوتار قيثارته تعزف لفتيان يخرجون من نهر الغرّاف إلى الصحراء.

- ح -

كأس كعين الديك في يده، ورياح تمحو الضباب من على المرآة، يلبس قناعاً، فتلبسه الطريق إلى صبيتها، إلى حانتها، إلى صحوتها حتى يغوص

في أنهار القلعة، هو والقيثارة والريح. لبقاء ينسجم مع رياحه كان خروج، يهيم، يحطم أصناماً ليدفن تحت ركامها القتلى. ينادي لتوحيد القرى، لتوحيد الصور. ينادي لهدم حواجز الحراس، وقد كان فأسه يتقارب من لمعان الأمل.

- أ -

يسمي الأيامَ منفى. يسمي الدموعَ نجوماً صارخة، يسمي البلادَ غابةً من سخام، أو بلدَ العُميان. يبقى في حالته، يصل حتى حافَّةِ الندم، في سرير الخوف، يُشْبِثُ أظفارَهُ في ظهرِ العدم. يجتازُ مدينتـَهُ إلى مدينةٍ أخرى، تحاصرهُ بأحلام من نحاسٍ، يعزفُ أغنيةَ البقاء في هذا السرير في جوف قلبه. هل يبقى في حالته من طريق إلى طريق، يتعارض مع كلام عن الينابيع بين الحروب، يتعارض مع كلام عن مرمى الاختيار، مع كلام عن بقايا امرأة عبدة، يجتاز خراب المدينتين، يخيّب عيون الطريق إلى منفى الكلام. يحلم مع قيثارته برياح، ليرى اكتمال القمر، القمر نفسه.

- ئ -

في طريقه إلى قرية عميان أخرسها زحفٌ كبير، كانت المرأة في قلبه والذهول في حياته. حكاية سوداء تقودُ عنقه إلى حفرة في وادي السلام،

تجرهُ إلى أنياب تنهشه، أصواتها تشقّ للحياة أنهاراً من دماء، تتشظّى المدينة، تتناثرُ أقدامُها وأذرعها وعيونها وأحشاؤها وعظامُها، تتحوّلُ إلى كلماتٍ، إلى خيولٍ تهربُ مع الهاربين. آنذاك عزف كلامه، وأغمض عينيه على قيثارة تلمع، قيثارة من ملح، لغة من حناجر مختنقة. وقال: ها هي حياتي في غلطتِها، عثرةٌ للتيه، عثرةٌ للموجة الشاملة، عثرةٌ لحليب الأرض، عثرةُ الزحف الكبير، عثرةٌ ضد القطيع الحائر، عثرةٌ لملح السماء الغامض الذي فسد وسكت، عثرةٌ لعاصفة سوداء.

– ر –

علّقتُ الأوتار واختفيتُ لا تراني عيون الأشباح. كم أنا بعيد في الطريق التي منها تنظرُ إليّ الوردة؟ صرخت: ماذا هل تبقى حياتي تندبُ ريحاً وتنتظرُ نهراً؟ خرجتُ وحفرتُ رأيتُ ينابيعها. اصطحبتُ الأوتارَ وظهرتُ. في المقهى رأيتُ الكراسي تتحدثُ عن الندى بإشارات غامضة، عن وردة حمراء في عالمي. الكراسي تتحدثُ عن الحائر وهو يسلّي فؤاد الأرملة بقيثارته. الكراسي تتحدث عن الوعود التي ليس لها لهب سوى الموت، ولأن الأرملة في هذا العالم لم تكن هناك، الكراسي تجلس فوق الرؤوس وتهذي عن الأسى الشاهق وتجاعيد الحلم الذي يعانق العميان. في المقهى أظهرُ وأختفي، ألتزمُ الصمت وأتظاهرُ بالعبث، لأن عيون الأشباه تنسج خيوط

المكيدة بين الجمرةِ واليد. جبهة من حديد وأخطبوط سؤال. عدتُ علَّقتُ الأوتار واختفيتُ، فاختفتِ القيثارة. هل تسمعني؟ قلت: إني أتحدث لأولئك الذين يسمعون قيثارتي حينما أطيرُ من نافذة البرج. في أسفلِ الحافات، في أولِ الليل، وفي أشدّ الساعات ظلمة، تأتيني أنفاسُها، حشدٌ من خيول مغيرة على شاطئ النوم وتملي عليّ: ستدخل ممراً ضيقاً، لترى أنكَ تعزفُ لأرنبٍ من الرملِ مذعوراً فاجأته بالبرق، أنت تحتضنُ قلباً، وتخفي كتاباً، ستدخل شارعاً ضيقاً، تكثرُ فيه النساء اللواتي فقدن أزواجهن في النار الأخيرة، نار أكلت أشجارهن، صعدت إلى أهداب الأرق، وتعلّقت كآبة صفراء في وجه يهيم في متاهاته الثلاث، الحرب، واللغة، والحياة. سأدخل شرفةً في العمارة الأخيرة لأرى تحتي نساء النبع بلا لهاث، بلا طيّة، أنام على الشاطئ، حولي تدب الزواحفُ، العناكبُ حبّاتُ مطر تحت أوراق التين، تعششُ وتبيّن لي مظلاتُ الانتظار طرقاً للرعب، طرقاً للنساء اللواتي فقدنَ ورودَهُـنَّ في ساحة الميدان. هنا يكون الموت مقتصراً على الحائرين الذين نسَوا خيولهم وقيثاراتهم على ساحل النوم.

– ز –

يهبط من مخبئه على جناحه قيثارة. يدخلُ ينثر أحلامه على الورق بذوراً بيضاً وبذورا أُخر، يستبدلُ بعد أن يشقَّ صدرَك، يستبدل القلبَ

بالفانوس، يخيطه ويشيرُ إلى الحكاية الملتحمة بحليب الأرض وهي تهذّبُ الندم، تذللُ الصدمات في وجه الورق النازف وكان يقالُ قديماً إنه من نسل السماء وقد عنيتُ الحائر. الحائر ملاك. الملاك خيالي الذي يصير حجراً، يصير نهراً، يصير شجراً، يصير حفيفاً يملي عليّ كلماته الجديدة، هو يعزف، يعزف ما يهمس: في منتصف الليل، في أعلى الحافات، كان يعرفُ أنه يدوزن أوتاره كان يعزف، لا أحد يفتحُ أبوابَ متاهاته الثلاث: حياته ولغته والحرب. الحربُ عاصفةٌ سوداء. لغتهُ طريقٌ تتفرعُ نحو مذبحة التأويل. حياته عثرةٌ في وادي الخراب، الخرابُ أشباه الرجال. الرجالُ عبيدٌ في جنّة المسوخ. هل يفلتُ من فخاخها؟ ما من جدار يبرهنُ على بيته. متاهات ينسجُ مستقبلَها مكرُ الطريق. بلا معنى لا شكل لها. طريق تشعبت مسالكها وصبتِ المصادفات فيها وحل ماضيها. ما من أحد يصل حتى يهرب من رعبها. لا أحد يقبض على روحه في مدينةِ الفقدان، فقدان البراءة والزمن. من يمسك برق الحياة؟ من يلوي عنق النهر ليدرك سر النبع؟ كل شيء هنا تحاصره الحبال، حبال كثيرة لا رأس لها ولا ذيل. هي قبضة رمل تتسرب بين أصابعه. هي عفطة عنز مصيرها رذاذ في الهواء تنتظر النزول. هي جناحُ بعوضة تنتظر الطيران. فيها ليلٌ طويلٌ أَنْتَنَتْهُ الحروب. فيها ممالك غارقةٌ بدمِ أبنائها. أخرج إلى شرفتي وأنظرُ إليها، لا وصلُ السماءِ ولا انفصالُها. أضاعتْ نفسَها وطوتْ سِجِلَّ الأملِ. لا عنايةٌ من أحد ولا أحد يعتني. لا سوادُ الأبدية ولا بياضُ الزوال يخلّصُهُ منهن،

تاهَ، سقطَ في فخاخِها وتشرد في الوديان وما وصلَ هو الحائرُ الذي اشترك مع العميان بكتابٍ واحدٍ كلُّهم كتبوه.

كلُّهم كتبوا فيه: ما من أحدٍ كتبَ هذا المصير ولم يقضِ عليه الزمن.

تموز ١٩٩١

بيت فوق طيران الصقور

فاضَ دمٌ فاختنق الهواء. جثثٌ طافية. ماذا يفعلُ لي الكتاب؟ رميتهُ على الجرف. مضيتُ تاركاً أمي وأبي وأخاً وحيداً لم تتبقّ حمّالة لنقله. نسيتُ موتاي. مضيتُ ناسياً بابي مفتوحاً لقليل من الحياة. رأيتُ على الرملِ ظلاً لصقرٍ غريب. الموتُ سالتْ روحُهُ في ماء المدينة. ومن عبثِ البلاد غسلتهم بدخان السماء. بعري الكلام سرتُ عابراً نهري. عنايةُ الطير شملتني فتبعتها حتى مررْتُ بأناسٍ، رؤوسُهم في الظلامِ بيضٌ. صعدتُ نحو المئذنة. لا أحد معي. الصقورُ حلّقت فوقي، أرعبتني العاصفةُ، شَلّتْ قدمي ولم أنظرْ. رفعتُ رأسي أحصيتهم. واحداً، واحداً. ثلاثون صقراً كتموا مصيري. نسائم الموت مرّت مع الغيم حين فتحتُ أبوابي. بغداد وحدها. تركتُ أمي والعجائز يركضن إلى الحدائق يحفزن قليل الحياة وينتظرن الإبادة. لفائفُ قديمة بيدهم. كتابٌ. خرائط يرون فيها الأرض ضوءاً بعيداً. نسيتُ رأسي ومضيتُ أعيد التذكّر. حلّقت فوقي الصقور.

رأيته يرتجفُ تحت النظرة الأولى ويختبئُ أبي. هنا مئذنة عالية. انهمرتْ من قلب السماء كراتُ اللهب. جدراني أبيدتْ. لهبٌ. لهبٌ تقذفه الصقور. تنفلقُ المدينة كلها. حياتي تنفلقُ. اشتعلتْ رؤوس الأطفال. الوردُ يفرّ من يد القاطف. رؤوسٌ في ساحة النار. الطيرُ ينزف. وأنا أقول: حياتُنا زَلَّةُ لِسانٍ، والسماءُ غلطة الأرض لا أكثر ولا أقل.

خرجوا
لا حديقة بالقرب منهم
صاروا غيوماً وناموا
لا قمصان لا صحون لهم
من تحت الركام قاموا

وقالوا: بعد كل هذا الذبح بسيف السماء ماذا يفعل لنا الكتاب؟ أوراقٌ كثيرة تسقط منه. أوراقٌ كثيرة تطيرُ إلى وادي السلام. شتاءٌ طويل. صقورٌ تلتقطُ الكائنات. رفعَ رأسه وفرّ طائرٌ من عينيه في هذا الخراب. تفيضُ دجلة دماً. أب يتهدّم كلّما مرّت أمام عينيه كرة من اللهب. حائطٌ ينهار. هزائم وهـزّات. نهر بين لهيبين. عبرَ الأدلاءُ. سقط كل شيء. الطريق مقفلة. البريد معطل. أثر بعد عين. الدخان أزرق. صراخ. زجاج حياة يتشظى. جاء من السماء موتنا. رضيع فوق ثدي قتيل. رؤوس مقطوعة قرب مقبرة في العراء. فليفرّ من أراد النجاة! يفرّون إلى أين؟ هذا صوت

طائر وهو يفرّ. أشجارُنا جفّتْ. جفتِ الأمهات. هذا الذي تفرون منه يتسع ويدرككم. تحيطنا لافتة سوداء على الحائط خطها الندم. العاصفة هبت لمحونا. لهب يسيح في المكان القشّ. الصقر في الليل يهبط وينحني يصعد ويقلع تماثيل الشمع. أحدهم يصعد يلتف وعلى نفسه يدور. يكتب بدخانه إشارة ويرجع إلى حفرة في عمق السماء. تحته بنت تهذب ليلها. تصِفُ أسماء أهلها خوذاً على ضفاف النهر. وهي تقول: الصمت غلطة الكلام لا أكثر ولا أقل.

أضاع وروده
من على الرفوف
لوحاته اختفت والممشى
غرفة النوم وزجاجة عطره
أميرته والسرير.
عينان بنيتان
اختفتا.

مضى إلى المئذنة وقلبه أسود. خرج من الصحراء بعد حلولها. نصفه محنط ونصفه مجنون. يقتفي أثر العابرين. معه أب وأم وبنت إطارهم الدخان. ظهر لفتاة تنتحب وعلى جانبيها وليمة الشيطان. جمرة في كفّه. خوذ تطفو. موتى وراء النهرين. الصقر يتفنّن بطرقه الكثيرة. المشهد

يفتح امتداده في السماء التي أهالت كل قذائفها. تطفو الكائنات. ألواح خشب على المياه جاؤوا سبعة، سبعة. يسيرون في نومهم يبعثرون حياتهم حصى في الطريق. خرجتُ وبقيت بغداد وحدها. دم. نار. هواء. تراب. تكبر الخرافة في ليل الجنون تتوغل فوقها الصقور هبطوا واحداً بعد آخر. انزاحت الحياة كلها إلى ضفاف النهر. وهو يقول: الكتاب غلطة الأمل لا أكثر ولا أقل.

ترك روحه
على الزجاج
نثر ظلاله على الشبابيك
خبزه يابس وتنّوره بارد
زحف بطيئاً
وهبَّ سريعاً.

في قوس طيرانه الصقر تذكّر الثور المجنح والجمل الضائع وقراءة الأثر، كان يطير ويفكر كيف نحتوا الثور وعرفوا مكان الجمل؟ بصيرة مصممة. خراب مزركش. فتح الكتاب والخريطة. أباد الأحفاد. ماذا ينتظرون؟ نظل في الكهوف نتذوق ملح الخوف ونحصي: هذا حفيد لا يدين له. هذا حفيد بلا رأس. هذا حفيد طار ما تبقى من يديه وقدميه في الهواء. الصقور تمطر علينا فصوصاً. العصافيرُ كراتُ لهبٍ على سعفِ

النخيل. من ذهب أسود جاء موتنا والظلام. بيت سطحه بلا سماء. الفجر أسود هذا الصباح. هوى السقف على حياتنا والتهبَ النخيل، لا قلوب لنا. صارتْ مأوى للذئاب. وما زلنا في الحياة، لا فرق بين موت وموت. رصاص الأدلاء أو نفخة من لهيب الغرباء. هذا فيضٌ من كلّ داء. صورة الحياة فتك وذبح لسيّاف السماء. قتل يعلّمنا كيف نُصَبِح جيفة فيختنق الهواء. ونحن نقول: الذهب غلطة التراب لا أكثر ولا أقل.

يومَ أسقط الصقر على رأسي
فصوص ناره
ظلت شبابيكي على الرصيف
وأقفالي أصبحت
بأيدي الصبية الهاربين.
حينها شهق سياجي
رافعاً ذراعيه
يريد سقفاً.

سقطت شمعة. نبلة ذبحت نفسها. رؤوس يقطع بعضها بعضاً. وحوش ترتع يصطفيها الفناء. لغة الفحول في خلاصة القول. ظلّت تروي عن أسلافها الميتين. كانت تتفوه لرضيعها لم تكن هناك مهلة بين الحليب والدم. تحكي عن نصف فم. وتنتظر الطيران كانت تلوح للصقر. قتلوها

في الصباح فلم تمت. قتلوها في المساء فلم تمت. قتلوها في الليل. طارتْ جثّتُها للسماء، جرفتها السيولُ. أية سماء؟ ماذا يفعل لها الكتاب؟ ليس للنسيان مهلة. كانت تبدّد حياتها بصمت. هزتها ريح وخطفتْ عينيها. عينان غائبتان. وهي تقول: البصر غلطة العمى لا أكثر ولا أقل.

جرفوا حجارتي
جرفوا ذكرياتي
ورقاً يابساً في الحديقة.
رأى حارسي
المقاعد والكراسي
والأسرّة
الأواني
والستائر
ترفرف له في ساحة الميدان.

فرّ واختفى في وادي السلام. كان يرش الماء. يضيء القبور. يشعل شمعة، ويعلّق البخور. يرسم ظلاً على الرمل ويمحوه. يحصي ويرمي إلى النهر الحصى. دمه لا يصافح أحداً. يسير مرتبكاً. نهار يتهدم مثل جرف. لم ير مفتاحه. يدفن نفسه. يظنها من العميان. يتلفّظ بكلمات عن حفرة في رأسه، لم يُفصِحْ، فينتحر المكان. في نهره أسماك ميتة. في حديقته

جذع يابس. المفتاح يضيع. مئذنة سقطت. بغداد بين خاتمتين الموت وفاتحة الكتاب. ديناصور خرج من كتاب قديم. طحن حياتنا طحناً طحناً. وما زلنا في الحياة، ذرّة غبار في عاصفة. سلّة في يد السياف تلمع فيها الرؤوس. في البيت آبار تنزّ دماً. نفرّ إلى النهر. النار زاحفة. تدور في راحاتنا الحياة خوخة متعفنة. نهر دم حياتنا. حائط عليه شتائم مكتوبة. ذكرى حياة زائلة. في الخرائب امرأة مغتصبة. بغداد خرائب متجاورة. الفجرُ أعمى والنهرُ. فلتسقط السماء أريد نهاري. رياح مجنونة. أبواق الفحولة وعنف القوارير. إبريق قديم. وشايات وأكاذيب. كل يدعي وصلاً في انفصاله. هم قضبوا بيد وانتزعوا بيد أخرى ونسجوا طاغية آخر. عنكبوت الذهب الأسود. الساسة والمخبرون في شوارع المدينة، مجّدوا موت الحياة.

في بغداد رأيت الأشداء والرضع على الرصيف. وأنا أقول: البريء غلطة المجرم لا أكثر ولا أقل.

تركوني
تركوا بغداد وحدها
باعوا دمهم والأثر الوحيد
واختفوا في الحجرات.

الصقرُ واللهبُ أعميان. دمٌ ونارٌ. روح حجرية. أشباح شقتِ الأرواح. دحرجتِ الرؤوس على الرمال. رفعتها على الرماح وسارت إلى وادي

السلام. ماذا تقول؟ كتاب أسود معلق في هذا الفراغ الثقيل، فصوله القتل، والجوع، والخوف. نحن نسكن في كتاب يملأ المكان بذبائحه. الناس والخرفان. ماذا تفعل بغداد بأوراق سود؟ وردة من العصب. عش غراب. كهولة سائحة. وحل ورماد. أسلاك شائكة. دبابات تزحف على كل قلب. ماذا يفعل لنا الكتاب؟ كتاب الوهم والغيب. بين سقوط وقيام. مصائرنا تبتلعها الوحوش. تطفو على الماء. خوذ على ضفاف النهرين. هاوية طويلة. ريش كثير. نصف انتظار وصنوبرة عجوز. طائر يحط في مثواه. نهر تسقط في أعماقه الأبـراج. تسقط المـآذن. دجلة مدفن. فيه قبر للزعيم وآخر سحلته الخيول في رمشة عين. ماكنة تثرم الأجسام. حوض تيزاب كبير. صورة بئر وجلاد. ونحن نقول: الأمراض غلطة الجسد لا أكثر ولا أقل.

طارت مرّة أخرى. مرّت الصقور فوقي. فلّشتني تماماً. جثث طافية في نهر دجلة. رميت الكتاب ومسكتُ جمرة في يدي. مررْتُ بمئذنة سقطتْ بالقرب من البيت. مضيتُ أحتمي بالكهوف. وأنا أقولُ: الموتُ غلطةُ الحياة، الحياة التي صارت أثراً بعد عين، لا أكثر ولا أقل

نيسان ١٩٩١

حربٌ واحدة

الملاكُ الذي لم يَقُـدْني إلى بابٍ بعيد، لم يضع بين يديّ كتباً أربعة، وضع في كفي جمرة قال لي: اذهبْ اقبضْ، وانتزعْ وابسطْ قلبكَ. انتزعتُ الكتابَ الرابع وجدتهُ كتاباً للعميان فتحتهُ، تأملتهُ، انتزعتُ منه كلمةً واحدةً أصغيتُ لها شذَّبتُ خواطرها وغسلتُ حروفها من سوادِ الكراهية فسارتْ في دمي. قلتُ لها: في حرفِ عينكِ العميق أسيرُ في رحلة حرة، وأنت تتأرجحين بين الحارس والعالم، تتأرجحين بين ثلاث كلمات. بزرقتكِ غسلتُ مُخيلتي من وحشة السماء ونظفتُ مجرّاتكِ من تبنها غسلتُ قلبي بنهركِ وعلى بساطكِ نمتُ.

أتمَمْتها

في حياتي الأخرى سمعتُ زرقتها ترفرف، ترفرفُ قرب ريشِ طاووسٍ غريب كنت أقرأ وأسمعُ رنين اختيارها كل يوم بين حرف وحرف آخر يلتفتُ

لزرقة أخرى. يسرقني السمعُ والتفتُ إليها حيث تستحم أحلامي في ينابيع حارة. كانت تقول: أنت المخلوقُ من زبدي لماذا تنصبُ لي فخاخاً ولم تصنع الزورق؟ في فصل من كتابها سمعتُ خفقها، وسمعتُ القارئ وهو يقدم في دفتر المياه صفاتها: هي عابرةٌ إليكَ من كنز خفي، رأيتها سماء هادئة، بذرةً تفتحتْ تحت غيمتها عصيةً على الصياد أنثى الكلمات، متمنعةً بوعورتها، تتزنُ في الصعود متهاديةً في الهبوط، رشيقة بغصنين أسودين فوق نبعها. أطوفُ في نهر عينيها، لأرى السمكة التي خطفتْ قوس نظرتي، انحدرتُ بقامتي والرمحُ طويلٌ، طاف زورقي حولها ولفني الدوارُ، فخرجتُ منفرداً عن سرب الصيادين الذين سموني السائرَ في الانتظار.

أتـمَـمْـتُـها مرةً ثانيةً

وجهها ثمرة تطفو على نهر دجلة، ظننتهُ انعكاساً لتفاحة الضوء التي ربيتها في زجاجة نفسي، أمدها بزيت أشجاري، أتبعْتُ منبعها في عمقه يلمعُ قولها، طينها ليّن بين أصابعي. هنا الوضوحُ يفتحُ لي: بياضها، مرافئها، شاطئها، مرساها الذي يراني أتعلق بخيط فجرها الواحد، حيث تستيقظ كل ذاكرة في سماء جسمها المصنوع من الماء، أنا صيـّاد الكلمات، كاد ينفيني التأمل فيها. وكان يقرأ لي: يقرأ كثيراً حتى صار لا مكان لي إلا في حرفها، في زرقتها أو في نبعها، وكنت أراني صرتُ حارسها ونمتُ.

أنا عابرةٌ إليكَ لتتمّني أعمق.

في سِنةٍ من نومي، كنت حالماً بها، غائماً تحت نحاسها، تحت رفيفها الطري. لِمَ التكرار. سمعتها تقول: دوماً يتهادى في إصغائك تموجي، أيها القارئ لم التكرار؟ لِمَ تقتربُ البذور من ديك الشاعر؟ وأي أثر لكتابي على مسرحك على جرحكَ، ومأساتك؟ أيها القارئ أقرّبُ إليك اسمي المزروع ببذور الخيال الممطور بشعاع زيتكَ، على مشهدك أتمرأى مثل الجمرة، وفي سراجِ ليلكَ انخطفتْ نفسي، أنت الذي تطوفُ في ملعب الأمل والظلام، أنت الذي كنت أكثر جراحاً بين الينابيع التي بها امتلكتَ سري. أنا سرُّها، أتأملُها، أنظر حروفها، أسير على حبلها، أخطفُ البرق الذي تقوله بالقرب من عميان غرستهم بين سماء وسماء، مراقبو السماوات، يَرَون ويَروُون. عليّ أن أنهلَ من آثارهم وأكشفَ عن ومضاتهم، منهم انتزعتُ كلمة واحدة وحفظتها.

أتمَمْتُها مرةً ثالثةً.

في جملةٍ من نوم حياتي، وجدتني بصحبتها فوق أحد الحقول، ومعنا ثلاث كلمات فتعجبتُ كيف لكلمة تسيرُ على الهواء، وأنا أسيرُ قربها بخطى مشدودةٍ لأنوثتها غبتُ في برقِ عينيها العميق، غبتُ وتهتُ مرة أخرى، وكان مسيري قرب زرقتها مختلفاً، كنتُ متلاشياً تحتها، كأني زورقها الذي يحملُ العاصفة، وكأنها في فضائه تشظّتْ كما الغيم تحت

الهبوب. محبةٌ، محبةٌ، محبتها تجمعتْ انتزعتْ قلبي وتوزعتْ في كياني. غفوتُ فوق ساحلها أنتظر الجمرة التي اختفت في غفلة مني في الطريق، نسيت الناي وأنا التفتُ إلى القارئ وهو يغرس الأمل حول صورتها، كما يغرس رأسي في حقل لثلاث كلمات. يدوّن صوتها على رقائق روحي ويكاشفُني الأسرارَ، فأتركُ أقلامها على الساحل، وأنتظرُ شبح الحياة، ربما في صورتِهِ يُتِمُّ الغرقَ.

مرة رابعة أتممْتُها.

في اشتباكٍ خارج الرغبة أنظر إلى السماء، وأتذكر زرقة الكلمة، قلبي طائر يتبعها غير أنها تذهب إلى النهر تقرأه، عن ضفافها لم أرفع نظرتي، تركت عينيّ بين يديها، تركتُ طائري وصعدتُ لجناحيها أسكن حفرتها. هناك حرف مطبوع على قميصي منذ ذاك المساء الذي تدفقتْ فوقه، حينها تذكرتُ أني نسيت الببغاءَ في القفص فصحتُ لِمَ التكرار؟ صمتاً أيها الخيّاط هذا وقتُ حضورها من وراء النهر، ما من جمال أعمق من مسائها وأقوى. خِطْ لها قميص العالم. خِطْ لها ستراً ولا تعطها لأحد، ضعها على بساطي، ضعها في وادٍ، رأيتُ البارحة أني أفتّتُ تويج وردتها لأبلغ الحافة وأنشر الشراع. كانت خلفي ولم التفتْ لسواها اغتسلتُ في نبع مائها، زرعتُ أوراقها أو جسمها في السماء، فتأرجحتْ بين الحارس والعالم.

أتمَمْتُها مرةً خامسةً.

جعلتني بين الصورة والمعنى في عراكٍ، أنا عالمُها ترسم صورتي في السماء، وأرسم صحنها على شاطئ النهر، أرسم لها قدحاً أكثر عمقاً من الشمعة تغسل ظلمتها بثلاث كلمات، تغسلُ بذرتها بعسلٍ لنحلي، فتخطُّ إشارةً على الرمل. شعاعُ غايتها جمرتي، الكلمات يدي، الكلمات بلادي، الكلمات حياتي، أصدقائي وملائكتي أنا طارقُ السماء معي القيثارةُ والهواء، أطرقُ، أطرقُ أبوابها، فيعودُ النهر إلى الوراء. أنسكبُ، اقتربُ، من ساحله، أفتحُ أبوابه وأنظرُ إلى عينيها هذا المساء بلا شائبة، أغسلُ قلب العدم بنبضها، وأرفعُ إصبع السؤال عالياً، عالياً حيث النداء يستقرُّ محفوراً على مطرقةِ الباب، ولأن الصوت ينهمكُ في وصفها حرفاً حرفاً، عجزتُ عن وصفِ صعودها إلى قمة البلاد. العسلُ في رشاقتها يرتّبُ أوتار القيثارة للريح لتنسى الصدى يسيلُ على الهواء. يأمرني الترقُّبُ فأنصرفُ.

اعبرُ إليها مرةً سادسةً لأتـمها.

بعد معارف أخرى، وضعْتُها فوق كتفي فنزلتْ بلادي إلى الهاوية، انتُهكتْ هناك. تركتُها مغروسةً على جرف الخراب، تخيلتُها بندائها، بكنزها الخفي سحبتُها، سحبتُها، أهذه كلماتٌ، أم حياة عريقة الجمال؟ أهي القوس الصاعد، أم نزولُ كتاب؟ أية كلمة؟ أية كلمة دخلتُ في سطرها

وتهتُ بعصاي؟ أهي الحـروفُ؟ حروف العميان، أهي بذرة الحياة؟ أية حياة، الحياة في غلطتها؟ خلفتُها ورائـي وذهبتُ لثلاثِ كلماتٍ، محوتُ زوال الأشياء بهنَّ وعدتُ إلى النهر. غرقتُ، فغرقتْ معي، هذا معنى أم صورة معلقةٌ على الجدار، تخيلتُها وأنا يقظٌ؟ هذا رأسُ قطّ أم العالم يشبه الخروف المحاصر بخندق الذئاب؟ لمعتْ ضالتي من بعيد، طالبتُ الكونَ بها أنكرَها قال: ابسطْ قلبكَ وامسكْ جمرته، لقد صبغتني بها. قلت: اتركني أُربّي حروفها ضد نبع الكتاب، وعبرتُ.

أتـمـَمْـتـُها مرةً سابعةً.

حدثتْ محبةٌ خفيةٌ، غريبةٌ وعميقة. في سطورها أبصرتُ العالم أشدّ زرقةً من الهديل، هو يبصرها برؤى ملاك، ولقد صار الفاتح لهذا الفضاء بكلمة واحدة. بات بأحشائها، دخل عرشها، جلس في صحنِ حياتها، في قلب غَلَطاتها، رأى نفسه خائفةً عليها من سوانح الغيب، هو الذي يمحو لأجل نفسه ويكتبُ لخمسة آخرين، معه يسيرون، وفي طريقه تشبثوا حتى وجدوها، رفعوها وجدوا السادسَ فيها يكتبُ ما لم تره الأيامُ، ولما يصل لكتابة الذروة يضع لهب الشمعة في الورق، يضع الحياة أمام العدم، ويجعل البذرة قرب حبرها السريِّ يجعلها فوق رأسه تتأرجحُ ويهمس: في أعماق الحرف لكِ بهجة القلم التي لا توصفُ، لكِ الكلمةُ الزرقاءُ ومهارتُها في التفتح، تفتحتْ، رأيتها، رأيتُ:

الحارسَ.

وفي فصلٍ آخر من حراسته، رأيتُ الملاكَ نفسه، فجنَّبني فيه العللَ وبلّغني معرفةً أخرى لها، وجدتها، وجدتها فتجلتْ أسماؤها، الطارق، والملاك والآخر الذي يمحو. الشاعر والخيّاط، القارئ والسامع. في شباكها اصطدتُ العوالم. وجدتُ جمرات كثيرة، أنيناً خفياً، عجائب سريةً، فررتُ، فررتُ ولم أستجبْ للإصغاء. صوتي يكرِّرُ: يا كاشفةً لإشراقي لا تخيبيني، يا ملجأ الهاربين من الكراهية لا مخبأ لي سواك، فوضعتُ على كل شيء اسمي، لا تبعثري شأني، وجدتكِ فتجلّتْ أسماؤك. وجدتُ الماحي يغطيكِ بغيمةٍ، يدثركِ ويدوّن برقكِ يدوّن عدم الأشخاص، شخصاً، شخصاً، كأنه يكتب مصيره ويمحوه. وبخوف يتفوّه: لا تزالين تمضين في روحي، متى تكفين الموت عن حياتي عن بلادي؟ وكان يقرأ في محبتها، وعلى رشاقتها عبارةً سريةً عن عاشقٍ قد جنّ في حبّ عاشقةٍ قد جُنتْ هي أيضاً، وهما الآن في السرداب، منطويان تحت الغبار رأيتها، رأيتُ فيها:

العالمَ.

وفي هذا رأيتُ ثلاثَ مصائبَ صارت مصيري، قرأتُ، قرأتُ فيها بلادي التي تشظّتْ، بلادي تشظتْ، بلادي، بلادي، بلادي لك حبي...

وظلَّ الخيّاطُ يقرأ، وأنا أقرأ وأنظر إلى العالم وأسألُ: كيف أنا هو، كيف أنا فيه وأنا في عالم آخر أنظر إليه؟ اخترقْتُهُ، اخترَقَتْهُ نظرتي يخرجُ من

قوسِها سهمٌ، منه أَفرٌّ، أفرّ من حقيبةِ الأطفال في منتصفِ الليل كنتُ أحملُ قلماً وورقاً، تسلّلْتُ من بيتِ الخياطةِ وتوجهتُ إلى حارسِ الحانة، حارسِ السُّكرِ، تهيبتُ مرآهُ في قلعة أهلي، هممتُ قبل صياحِ الديكِ، دخلتُ فرأيتُ، رأيتُ فيه:

الإنسانَ.

وفي هذا لم أر سوى ستة غرباء يجمعون بذوراً بيضاً، وينثرونها سوداً، مرة بعد أخرى، إنهم هناك في لفائفِ الأوراق، في الصباح نازعتني سَكْرتي فولجتُ في سرداب أبي وهو بلا بابٍ تهيبتُ ظلامه وانتابني الرجفُ، ارتجفتُ حتى انتبهتُ، عندها نازعتني نفسي، فنازعْتها المحبة، هممتُ حتى اقتربتُ، أخافتني صورة على الجدار تحتها كلمة واحدة شربتها كلَّها. فصرتُ أنا العاشقُ الذي جُنّ بها، انتقيتها لا غبار عليها. هي كيسٌ من الحروف، بلادي، بلادي بأحجارها، وأشجارها، وحيواناتها، وأنهارها، وعالمها، وترابها، وإنسانها، وحارسها، بلادي، بلادي حملتُها على كتفي ومضيتُ.

كانون الثاني ١٩٩٠

نسخة ثانية

صورة واحدة لنصف حياة

لأنكِ نهاري وأنتِ النومُ كلّه، ولأنكِ واحدةٌ من أضلاعي ولأنكِ تفاحة النور التي وراء الغمام، كنتُ عرياناً قبل أن تجلبي إليّ الحية، ولم أعرفْ بياضكِ كنتُ أخشى طُرَّتَكِ السوداء ولم أختبئ من أحدٍ، بحبة قمحٍ معكِ اشتركتُ، كنّا بتفاحةٍ واحدةٍ نرى النهارَ. عرفتُ بكِ كل شيء وهمتُ ولم أنسَ.....

حوادثُ عجيبة

لا نعرفها.

أنتِ التهمتِ

نصفَ حياتي واحترتِ.

الحيرةُ خلاصةُ الموجود.

ولأننا نصفان لحياةٍ واحدة، صرنا نحلمُ بحياةٍ أخرى، أنتِ غَلْطَةُ الْعُمْرِ بكِ خرجتُ من جنّةِ العميان، تحرّرتُ، تحرّرتُ من ذاك العماء، هربتُ

حتى لا يراني أحدٌ، من قفصٍ إلى قفصٍ طائر بلا أثرٍ اختبأتُ وأنا أهمسُ: نعم أكلتها، فعلتها، وسأفعلُها وما ندمتُ، من قمحها اقتربتُ، بها احترتُ، احترتُ من شجر إلى شجر، ومن حفرة إلى حفرة أطاردُها، أطاردُها حتى طُردتُ، وانتحرَ السكونُ. ولأننا نصفان لحياةٍ واحدة، صرنا نحلمُ بحياة أخرى صرنا واحداً.....

نهرٌ مفتوحٌ

كتابُ الحياة،

وقفنا، وقفتُ أمام الحارس وسألتُ: من أنا، ومن أكون، أين ذاتي، وهل هناك ذاتٌ من الطين؟ وقفتُ وكان الغمام بيننا، سألتُه: فخاطَ لي ما يستر العريان لنصف حياةٍ خاطني ولنصف تفاحةٍ خاطَ السؤال.....

سحرُ العالمِ

تأويلُ حديثٍ غامض.

ملاكان اقتربا، أعميان هما، واحد منهما لبابٍ بعيد قادني قال: اخرجْ، اخرجْ من هنا، اخرجْ منها، اذهبْ ومتْ موتاً هناك، وقفتُ قبل الخروج وصرختُ: لماذا أموتُ، من منّا كان في داخلهِ حفرة هذا الكون؟ بها خرجتُ، بها أموتُ وبها أعود.....

الذكرى خطةٌ

لتشكيلِ العالم.

خرجتُ، وقفتُ تحيطُني هاويتي، الظلمُ ظلامٌ أسودُ، وأنا بينهما خيطُ نورٍ من وراء الشجرة، أطوفُ بين متاهتين، احترتُ كلما أخطو، أسقطُ في هاوية للموت، كلّما التفتُ، أسقطُ، أتدحرجُ، أصعدُ وبها أعودُ، الحياةُ حيّة بيضاء، وأنا بينهما غصن تفاحة في متاهتين أطوفُ، ولأنها نصف حياتي صرخت: أمام الحارس أنا الحيّةُ راءً أريد، أنا الحياةُ راءً أريدُ، بل القمح الذي كان هناك أريدُ، أريدُ أن أدخلَ برجَكَ، لأعودَ إليكَ، ولم التفتْ. كلما التفتُّ سقطتُ قربها، وهي إلى الظلامِ تعودُ. بعد الخروج طفتُ العوالمَ، عالماً، عالماً، من خروج إلى خروج، وأنا أصرخُ: من أنا، ومن أكون لماذا أريد، هل حريتي موتاً أموتُ، ولماذا أموتُ؟ ولأنها نصف حياتي ولأني كلما التفتُّ، سقطتُ وكلما سقطتُ صعدتُ بها. لم يكن الفجرُ بعيداً، سحبتُ الغيومَ إلى الحجرات، وأدخلتُ النومَ في النهار، وجعلتُ نصفَ الأرضِ أمامكِ، وأخفيتُ نصفيَ الآخرَ في النبع، فرأيتُ العصافير في الحجرات قد جُنّتْ بحبكِ.....

في نبضِ العالمِ يتنفسُ العدم.

وقفتُ على حافةِ الحياة، أتذكّرُ لأحتفي بها، ناديتُ على رأسي الذي بين يديها تساءلتُ: كيف أكونُ في نفس اللحظةِ مقطوع الرأسِ، وأرى أني أنظرُ إليّ أصلُ إلى تلك الأرض أرضِها، أهي حفرتي؟ أبحثُ عنها، أصبحتُ أرى

أنني اثنان، واحد يحرثها وآخرُ يحرثُ صحراء أعماقه، واحدٌ يكتبُ وآخرُ يمحو، هنا صار دمي مخلوطاً بملحِها، وهناك متروكاً في بئرها، بئرِ الموتِ الذي يزحفُ رملهُ منها، عليها

رأيتُ في وسطِ البئرِ خوذتي يملؤها الماءُ، وأنا أسيرُ قربها وغيري يحاولُ أن يشربَ دم الخوذةِ.....

التذكّرُ يقرعُ النواقيس.

خطفتُ نفسي ومضيتُ إلى الحجرات، فوجدتُ النوافذَ محطمةً، رأيتُ البيتَ تسكنُهُ الغيومُ، ورأيتُ ستةَ رجالٍ كفزّاعات قديمةٍ، علقها الخوفُ على الجدار، رأيتُ البيتَ قد غادرتهُ الينابيع، غادرتُ عويلَ الخصومةِ، وكنتُ لا أفصح عن عري الحياة في المكان الذي كنتُ فيه.....

في وجهِ العاصفةِ تتعبُ الغربان.

هل أؤرخ الصراخ؟ نازعتني هواجسُ الأشياء، ولأنكِ تقودينَ نومي نحو الشمس التي في الحجرات، غطيتكِ بالضباب، كان بيني وبينك خيطُ فجر، غير مقطوع يمتنعُ وصفه، هل أقيمُ كواكبَ أخرى ومسلات، هل أروي لستةِ غرباء تهيّبتُ مرآهم في الحجرات؟ لامستُ شمسَهم، ورأيتها غير ممكنةِ الإمساك، غير قابلةٍ لِلمَسي، هذا الغموضُ يعرفهُ الخيّاطونَ الغرباءُ، ومن هنا فأنتِ مندمجةٌ معي، قال أحدهم: ربما العارف كان.....

النسيانُ محو حياةٍ.

أتذكّرُ رجلاً عاد إلى موطنِ أسماكهِ الهاربة بعد أن نَسِي امتزاجَ بحْريهِ، كانت الصخرةُ هدف الطريق. ولأني واحدٌ من السبعةِ، أَدُلُّكَ على مدينةٍ في أعماقِ المياه، رأيته طائراً من أفقٍ إلى أفقٍ، بلا أثرٍ، يخيطُ الصوتَ لساحلهِ، يَخِيطُ الأجسامَ لأكفانها، تائهاً بين الصيفِ والشتاء، كارهاً لهما معاً، حاضناً أسوار المدافن التي كادَ ينساها هناك في السديم، أقام مجداً للباب، وفاجأهُ بالينابيع، هو هذا الخفيّ الذي ينفتحُ على القرى.....

يخلعُ عنها باب الأسرار.

كان الغرباء مندهشين منه في الحجرات، شمسهم لا تمسكها الأرض. كان يطيرُ بأجنحةٍ منقوشة كرسوم الأقدمين على الجدار المدينةُ كلها تتفتحُ.....

استعدّ ما تعرف،

وأبدأ بطرح السؤال.

قال الملاك: أفرغْها من الليلِ لتمتلئَ، أخْضِعْها للرؤى لتغلب، عرِّها لتكنّ جديدةً وقال الطارقُ: انحني أيتها الجنّةُ الطرية لتستقم الشمس، لا تُبرزي تفاحتك لتَبرزي، هكذا أؤسسُ المدينةَ، وأفهمُ سبلَ التكوين. أشهد

ما يشهده الانتظارُ. أتذكر الأمكنةَ وهي تُطوى، الخطوةَ وهي تَقْوى، تتسعُ، فتجعلني أتأرجحُ بين الحقيقةِ والوهم، أراها في الوصولِ، تطوي المسافات وتُكمِلُ السفرَ مرةً أخرى، لينتهي الشوط فتَصل المكانَ بالمكان.....

الديكُ لا ينسى الحارسَ

حين يلتقط حبّاتِ القمح.

ما دامت لك هذه الومضة، ولك المعارف، لكَ أن تدفعَ المساءَ إلى الصباح، لك أن تحيا حياة أخرى، فأنتَ هنا، وأنتَ هناك، أنتَ هنا وغيركَ هو الذي يجمعُ العدمَ في الحجرات، ويحيطهُ بنسيجِ الندم، أنتَ الكاتبُ الماحي على رملِ روحها تقدمٌ الآن إلى هذه الومضة البعيدة، وحدها الأعوامُ تكشفُ عن طفولتكَ، عن وردتكَ، عن سرابٍ يمشطُ فضةَ شعرهِ أمام المرآة، حيث لم تعد ترى سوى النوم الكامل في المساكنِ أو بالقربِ من القمح وراء الشجرة، لم أنسَ أني كنت هناك، لم أنسَ أيضاً قبل الصباح أني وقفتُ وحدي على الساحلِ، أسعى لأطيرَ إلى هناك، كيف أطيرُ تاركاً رأسي بين يديك، دائماً ذلك الرأس الذي أعرف أنه ليس لي. كان أهلي هنا، وكان أهل أبي هناك، يصلون لأرضكِ ويختفون. العالمُ بلا خياطةٍ للأسرارِ قتلٌ للعميانِ ليلاً، نفيٌ لموطنِ الذاكرةِ، الخيّاطونَ وحدهم الآن على جرفِ السماء يعرفونَ السائحين بلا أثرٍ ساروا، فسرٌ مع السائرين.....

في نظرةٍ خاطفةٍ

يتم التعرّف.

أنت المخصوصةُ بهذه الإشارة، إشارةٌ تنقرُ الضوءَ وتلتقطهُ حبةً، حبة، إني أُطلقها في الفجر تطير بِلا أثرٍ، تخيطُ غيومها، غيمةً، غيمة، تمطرُ قمحاً، فيطفحُ سفحُها، تلك الغيومُ تبصرُني أمضي وحيداً على الساحل، أُبصرُ بلادي أعلى من جبل في مساء الكون، أنا نقطة تحتهُ. رأيتكِ تزورين القرى، وتسألينَ عن شخصٍ صار شخصين، قرية.. قرية تدخلينها، وتضعين عالمنا في قواريرِ عاشقاتٍ، وتقولين حين تكون الواحدةُ مع شمسِها، مع نصفِ حياتها، لا يصح أن تكونَ الواحدةُ اثنتين.....

صورةٌ مشعةٌ

ينظرُ فيها الخيّاطون.

ولأنـكَ نصفُ حياتي، أزحتَ عن قلبي الغياب، صرتَ الواحد الذي ينتظر قرينته، تشرقُ بها الذكرى، تموجُ زرقتها بمجيئكَ، أنتَ اكبر من نظيرٍ لكونكَ نصف رحيلي نحو جمالٍ منسكبٍ ينتظرُني. أنت الدليلُ الذي رأيته يقودني لأماكنَ تخيطُنا لها في جنةِ الغرائب، ليفتحَ مدينةَ الضوء في سواد البلاد، لجوزات تتذكرُ، أقولُ: بكَ لا ألتفتُ لأحدٍ، يسقطُ أو يقومُ، بكَ عرفتُ كلّ شيء، بكَ دخلت جحيم المبصرين، بكَ عدتُ ومعكَ في سريرٍ قرب عين المدينة نمتُ، سألنا معاً: من نحن، من نكون، أين أنفسنا،

لماذا نريدُ، ولماذا نموت؟ صرخنا: أمام حارس العميان، نحن المبصرين، لم نجلس على صخرةٍ، وقفنا أمامك، لم يكنِ الغمام بيننا، فخطتنا لعالمٍ أسفل، ولجحيمٍ اسودَ خِطتَ البلادَ، فهتفنا لك: .....

نحن هنا، الحبُّ والعريُّ يعودان بنا إلى الفردوس،
ومعنا كلمةٌ واحدةٌ ترفرفُ فوق العالم، هي الحياة.

تشرين الثاني ١٩٨٩

بيت في بحيرة سيروان

في ظلامِ نهارٍ طويل

أسيرُ على حريرِ زرقتها، على مائها، روحي تتلوّى بزورقها، تخبو نارُها فتخلَعُ ثوبَها الشفاف، قرطٌ يتدلَّى على وجنتَيها. أَصغيتُ لحفيفِ القرطِ على العُنُقِ. لم أرَ أحداً أحدا في ساحة الميدان، لم أر شارعاً لصيادي القوارير، لم أرَ صورتي معلقةً على مسرحِ الحيطان.

أظهرُ وأختفي.

فقدتُ نورَ العينِ، لم أرَ، لذا أروي: أتجلَّى في نهر الكلام، تتكرَّرُ على لساني موجة حرةٌ. يتموجُ مشهدُ الحرب في منامي، فأنسى أنني كنتُ هنا أروي دخانَ السماءِ لقلبي، أحفرُ رملَ ذاكرتي. أصغيت لشتائمِ أُمّي، أصغيتُ لحياةٍ مسفوحةٍ على روحِ الجبل. أنا وعكَّازي في الطريقِ، منذُ

عشرينَ عاماً روحي غَزَتْها الجمراتُ وهي تتطايرُ نحو رأسي، تخترقهُ، يكشفونَ صوراً لأرواحِ القتلى، حمامٌ يرفرفُ على الشاشات من شاشة الى أخرى، الانشادُ يهذي في الطريقِ إلى البيتِ العتيق، التذكُّرُ دائي. رَمَوا نايَ القصبِ في بركانِ اللهب، تكسّرَ إطارُ حياتي، تلألأَ دمي على الأشجارِ، لمعتْ بومةٌ في حديقتِنا، لمعتْ عينُها على غصنِ الخراب، نزفْتُ خضرتي قربَ مسرحٍ يقودُ حياتي لرقصةِ الموت، لم أصغِ لهم في دولةِ الأشباحِ، وهم يهدمونَ بيوتاً على ضفةِ بحيرة سيروان، أصغيتُ لأنينِ عجائزَ وقواريرَ يسيلُ نورُها تحت دمِ الكراهية. يختلطُ خيطُه مع خيطِ الرماد. صرختهُ تتعثّر في خطواتِ الهواء.

في صباحٍ من هذا الظلام،

كان غرابُهم يُمْلي عليهم، كيف يدفنونَ الجثَ، كيف يبقى على رأسه التاجُ، تاجُ البيت؟ لا شئَ غيرُ ذكرى طائرهم معهم، يدفنونَ المصابيحَ تحت أشجار التين. والمرايا وراء جبلٍ لا وديانَ تحتَهُ، تحتهُ هندسةُ الموتِ تخطِّطُ لمعركةٍ أخرى، نسيتُ جسدي في حفرة الطين، نسيتُ هندسةَ الموت تنسجُ خيمةً للظلام، ربما في زاويةِ البيت قلبٌ ينزفُ، تجتذبهُ كآبةُ الفقدان، ربما يحدِّقُ في الدمِ البليغ، وطويلاً في هذا الفراغ، فواتحُ الكائنات تحتلُّ البيوتَ، البيوتُ تحتلُّها الأشباحُ وريحُها، تتَّسِعُ المآتمُ، يتَّسِع كلامُ المساءِ،

كلامُ الندم، وكلامُ الانكسار. مداهماتٌ تنفخُ الفضيحةَ عاليةً في القرى حتى ينفجـرَ قلبُ الرياح.

نهارُهُم محلُّ الخطأ والنسيان.

التذكّرُ دائـي. قربَهُم في إيقاعِ المكانِ تستمرُّ المناحاتُ، في الظهيرةِ ينحتونَ التماثيلَ لشبحِ الغراب، تمضي الزرقةُ تروي الحكايةَ، تخرجُ ومعها سخامُ المصائرِ، تقذفُ أعماقَها، تقذفُ سرَّتـَها في ومضةٍ للرحيل، الوجدُ زادُها، والبرقُ إشارةٌ لمسرحِ الموتِ والحياة.

نهارُهم نهارُ هدمٍ.

سيخرجُ من البيتِ، ليدخلَ الوردةَ الحمراء، يخرجُ من البيت، ليدخُلَ في الجذور، من البيت يخرجُ، يقتفي أثرَ البنت الوحيدة، يُصْغي لرقصةٍ في الظلام، ليصنعَ لها الجمرةَ الطائشة، ويغسِلَ التفاحةَ في العراء.

بعد ليلةٍ مشبوهةٍ في المكانِ، يمضي اللّهبُ، الجسدُ يمضي حيث يمضي معه البرقُ خلف البيتِ الرشيق، سيغذي المشهد بالطرق الكثيرة، هكذا الكلامُ يُنشِدُه امتداداً، يبعثره الحصى في الطريق التي لا عين فيها، تدوخُ الكائناتُ في مسرحِ الأشباح. من بابِ الظلمةِ خرجنا، قد هزُلَ الحبُّ في

العراء، المشهد مُذهّبٌ بالخرابِ الذي ينسجُ حريرَ البنتِ الوحيدة. نسيتُ أن بريقَ الغيبِ يفْتِن عيونَها بالطائرِ الغريب.

ظهيرةٌ تتلوَّى كأفعى

وحاملُ الرسائلِ بعُكَّازه يطرقُ باباً غريبة، يبقى خارج البيت يتذوق العداء، بالقرب منه ثلّاجة الجثث، رأس مقطوع يهدهده الأنين. بالقرب منه سور منهدم أيضاً، لتبق الفضة وذهب الحظيرة في أدراجهما، ليبق الباب يعلّق على ذراعه لافتة سوداء، لا تحط الطيور على رأس مجنون، بعد سقوط النسيان على هامته، احتشد الملثمون في وحشتهم حول بحيرة سيروان، ليدونوا المذبحةَ على الخشبة. ذبحٌ وانتهاك، هذا مشهد الأشباح....

الساعةُ لم تبدأ سيرتها

أجسادٌ غفتْ وحولها الوحوش تدور.

من على التلِّ نعاجٌ تاهتْ وتسربلتْ في عصف الرياح، عن صبيّةٍ ترفعُ المناديلَ أمام عيون العُميان، عن كتابٍ يُرهِبُ أراملَ الحشود، عن صورةٍ للَّقيط في عينٍ مطفأةٍ، لأجلها نسيت الأرملةُ حظَّها من الحياة، عن خلاصة

الحياة ترتجفُ في منهج قتل مخطط له، سيظل يروي ونروي معه: هذا البيت يتدلى فوقه رأس مقطوع، نظل نروي عن ثيرانه الحجرية، نسينا أنها الذئاب، نسينا أن نسمي الأشداء الأحجار التي أعمتهم. الثدي لم يعرف أن أحفاده يفعلون ذلك، سنظل نحكي عن صراخ نافذة تطل على الطريق، تنتظر الطائر يحط على مزهرية البنت، ماذا يحكي كتاب الدليل عن تجمهر الموتى عليه؟ يسير قرب ضفاف البحيرة حتى لا تعود عليه رقصة الأشباح بطير ذبيح.

ظلام طويل في دمنا

قرأنا المراثي كلها، زرعنا بذرة نارها، ليس لنا أن ننسى المساء الذي دثّرنا.

دثّرَ عقلَنا الجنونُ.

هذا الصباحُ المفضوح بظلامهِ. في دمنا الضجر لا يعرف الهدنة، ينصب الفخاخ للآمال في الكهوف، كأن الثور المجنح لم يحطّ يوماً على جدران منازلنا، وكأن النسيان يرفرفُ بأجنحةٍ على مهد الرضيع الذي أرهقه السراب.

في ساعةِ الاجتياح

أصغيتُ لصليل البنادق والمدافع وهي ترمي وترمي ولم يشعر أحد بالندم.

الصبيّة حذتْ مثل أسماكها المنتحرة، كانت بحيرة عادية انتحر بعدها العقل، حيوان النصائح بين القفل والمفتاح، ربما الكائنات المستباحة مثل البنت استطال عنقها، لترى غيمة خضراء، تدخل غرف المنزل وتنام في حظيرة الثيران، لترى رحيق نور تشعه العيون، عيون الحيوانات الدامعة وهي الآن تطفو على المياه، تطفو على كفّ الأسابيع، على كفّ الأجوبة المتناقضة، وكلّما تشيخُ بعد يومٍ تضيع.

في هذا النهار الأسود

ترى من يخلع معطف الظلام كذكرى قناع؟ كان قبل السؤال، الليل بغلي يهبطُ بي سفوح شعاع يبعثه جسدي، مهرجانه إلى الملهاة المشيدة فوقي، فوق الثلج الذي استعاد ماءه، وفرّغ رايةَ الطريق من الريح، أيها الجمر امضِ إلى وحدة يزوغ طائرها بين خاتمين، خاتَم الأبدية، خاتِم الكلمات.

في هذه اللحظة اللامعة

امتدّ اليأسُ، فقست القلوب، أيها الجمرُ، جمر المأساة، هذبتني المرايا،

كلّما أرى وجهي أخترعُ لي طريقاً الى الله، مبجّلاً أيها الجمر تطردني رؤيتي.

في السلّةِ أرقّ الدموع، مبجّلاً أفتشُ في الظلام سرّاً عن فراشتين حطتا على صدري في هذا الظلام الحجري، فشعتا وهمستا: تعال الليلة إلى نبع الحرير، لتصغي لوردةٍ في حوزتنا، لدمنا يرخيهُ الأنينُ، أنينٌ، أنين.

صدأ الأيام في ساعةِ البيت والجراح عالية.

الأشجار تندسُّ في الأدراج، الموج يدور في راحاتنا، يفتشُ عن خوخةٍ يعفّفُها القمرُ المتمدد السكران بروح السماء، تدفعه الجداول لينابيعها، ويرفعه الطينُ، معي شتائم مقيدة، خوذة مثقوبة تتبعني، والعصا ساق مبتورة لصديقي البطش، معي رجاء الكهوف.

في مساء هذا النهار الطويل

كنّا نختبئ تحت الحلفاء، الجرذان تتقافزُ بين أفخاذنا مثل رؤوس البصل، كانت تصرخ بصمت: شدّني، شدّني طويلاً، شدّني، شدني طويلاً، شدّني الجو بارد جداً، الفجر والنهر توأماي يبصران البيت يودعني!

كانت جمرة الرياح تمنحني القيثارة، تمنحني الثقة العالية، تمنحني

النشيد، هكذا الصبيّة الوحيدة تقدّم لي حيوانات تستفزني: هذا الثورُ المجنّح يعرفكَ كصارية لزورق البحيرة، وهذا غرابُ الثلج يعرفك كأثر للضحية، ويعرف أن دمك اختلط بالمياه، وهذا عنكبوتُ الغار يعطيكَ كتاب الساحر، وربما تذكره بأحدٍ سواك.

تستفزُّني الآثـارُ، تستفزني ضفائرُها الشقراء المحلولة في صخب الذهب، تستفزني الأغشية البليلة، فأرى السنابل ترقص على موجة العبث الهادئ، تضحك تحت انهيار الذراعين، وتتخطّر عري الكلام.

في يدي الثدْيُ ينفصلُ كقبّرة هائمة بين قمم العاطفة، تدخلين في نبض الحلم وترتـجين الحياة تجمّل النهار لعينيك، رياحي تصب السكون ومدائحُ الروح ندى يبلّل ملحنا، يبلّـلُ الضحى، طائرنا اغرورق قلبه فهتك ظلمة البلاد، ولم يَقُد الرؤوس العالية والسؤال الشقي لمقبرة في وادي السلام.

في مساءِ الوحشة

مـاذا أقول لموجة الصراخ؟ وهي تكسر هـدوءَ سمعي في هذا الفراغ المحير؟ هكذا أنا اسكن في الوردة الحمراء، طائر خائف يضع عش كهولته على راحة يده، وتنحدر في صمته وحشة الأسئلة:

❖ أين المعجزة في موقدنا العادي؟

– سأجعله عالياً في لغة أخرى يا بيت النسيان.

❖ هل تعرف كبش القربان؟

– نعم تمثلني إشارة المشاعل و تمثلني المسالك الجديدة.

❖ عن إي شيء تفتش في منابع النار التي تبحر في زورق الأنوثة؟

– أفتش عن سماء قديمة. ربما وراء أبواب العاصفة.

❖ هل جننتَ في رماح الضوء في بيت تسكنه الغيوم وبنت رشيقة؟

– جننتُ بأسراب الرسائل الحزينة، التي تطفو على طيّات البحيرة.

في نهار ظلام طويل

حين اتسعت الهاوية، كنت لي مرح الطير يغويني، تبعثين لي نصف الانتظار في سرّةِ الحنين، تبعثين قلق الطفولة، وتقولين لي: لماذا لا تبكي نعاج السماء في الصيف؟ لماذا يعبرني الصنوبر كلما مررت؟ عندما تضيق الهاوية ولا أراك، الصقر الرشيق يقودني، يقود قلبي لمثواك، التدحرج يغزل صوتك بهدوء يدلق مسرتي لنداك.

هكذا البحيرة تحترقُ في أعماقها الزوارق. وتدوم. هكذا البيت تنسجه العنكبوت خيطاً، خيطاً. ويدوم. تسحقه الحوافر والحروب. ويدوم.

من ترقق حجر المرارة لي؟ من يسمي تموّجات الطفولة منزلي؟ أيتها

الوردة السوداء ارفعي بهاء جنوني، ارفعي البنت إلى قمة ظلي. ربما يمرّ بغلُ الخراب وخريفه ودم النار، منتشياً في المساء قرب بحيرة سيروان، لا تبكيه خوذة طافية ومياه حمراء، بالقرب منه بيت أعلى من الغيوم، بيتٌ فوق طيران الصقور. جُنِنْتُ ولا أملَ لِيَ الآن.

كلُّ هذا رأيتُهُ في غَلْطَةِ عُمْرِي، وقد كنتُ أخشى الجنونَ إذا قلتُ: إني رأيتُ.

أيلول ١٩٨٨

حيرةُ قارئ الحرب

لأولِ مرّةٍ طفلٌ يرى صورتَهُ في المرآة فيظنُّها شخصاً آخرَ. أصغى لصوتِ حيرتِهِ كصفيرِ نجمةٍ بعيد. استلقى في مشحوفِهِ، عَبَرَ النهرَ نحوَها قبلَ أن يَظهَرَ البازيُّ من العدم.

شدّها لأحلامِهِ اسمُ سحرٍ قديم. لم يصل إلى العشبةِ، ولا إلى بيتٍ من الطين تغطيهِ الأشجارُ. خاطوا له العينين، جروحٌ عميقةٌ في مرآتِهِ، لم يرمِ من قوسِهِ برقاً. محبرةُ الشكِّ في دمِهِ تفيضُ.

لم يقل كيفَ وصلَ إلى حروفِ جمرتِه! إذاً كيفَ أصبحَ ضحيةً لركامِ هذا الغبارِ؟ تراهُ المرأةُ دائمَ التطوافِ حولَ تفاحتِها، وهو يُصغي لحيرتِهِ، ذوى تحت نخلتِهِ، هل ارتمى في مقبرةٍ لوادي السلام.

هذا نهرٌ، هل أصغى له؟ هل سمِعَ رفيفَ فراشةٍ تطوفُ حولَه؟ متى يرفُّ على أوراقِهِ الحبرُ البديلُ؟ في الوجوهِ مئاتُ النُدبِ الصغيرةِ، أشباحٌ

فسدتْ. فقدتِ الملحَ في الطريق.

لوّحوا بمناديلِهم لمدنٍ نائمةٍ، غادروا منها وهاموا. هكذا كانوا يراقبونَ النجومَ، من كأسٍ لآخرَ، هم يكرهونَ ويحبونَ الصفيرَ. لم يصغوا إلينا في ذلك الوقت، كانوا يعرفونَ أننا انقطعنا عن الوصول.

نحنُ الذينَ لم نكنْ مبالينَ بفراشاتٍ تتجول في وجداننا. انطوى مشهدُنا. فعبرْنا فخاخَ الصيادينَ، وصمتْنا عن فشلِ العرش في هزيمتِهِ الأولى أمامَ الأعميين. رفعْنا أصابعَنا المبتورةَ تجاه الصور الملقاة بالقربِ من سماءٍ ترهبُنا في كتابِ الساحرِ الذي تشبّع به دمنا. نحضنُه فيمحونا، رميناه على الجرفِ، فأعادَهُ منفانا.

أصابَنا في طوفانِكَ الغثيانُ.

وجدناكَ في غابةِ أحراشٍ، فتعفنتِ الدموع. وفاضتِ الأيام. هنا قلتُها: سأرمي صورتَكَ في بركةِ الفقهاء، يزخرفونَ حواشيكَ بماءِ الذهب، يربّونَ ذيلكَ السمين، يحفرون حفرتَكَ. ويتباكونَ على حصانِكَ المخدوع، يقودونَه الى تخومِ الخوفِ والغيب.

قالوا: كان ضحيةً أخرى بين أذرع اللعبة السريةِ في البقاء من أجل الصراع. فرموا أجسادَهم حطباً للنيران، واقتربوا من القتلةِ القدامى. رفعوا رايةَ الرأسِ المقطوع تحت أسئلة الكتاب وجرائمه. جاؤوا من لحظة

السروال القديم. جاؤوا شهوةً للكلام. مع هذا تكفيهم هذه اللعبةُ يقيمون لها الكمائنَ ويشيّعونها. تقيمُ لهم فخَّ الغيابِ بكتابها السمين، غادروا المكانَ وأحاطُوهُ بسورٍ من الظلام، وبقَوا نائمين دهراً في الكهف ينتظرونَ الخيول.

قالها: زبدُ الحيرة لي. مليونُ سيفٍ لي. سنابلُ الكتبِ ترفدُ سماي بالنجومِ الضالة. العابرونَ من برقٍ دخلوا فداحةَ الحبر، وتشرَّدوا ملثمينَ تحت تبن المجرة يسترسلون في الحديث عن حيوانات تذكِّرُهم بمهرجة خرساء سقطت من الحبل وتشظّتْ.

هل نُهبتْ دلالةُ التفاحة؟ من يعصِرُ قلبَها بين قوسين؟ ربما تستلقي في المشحوفِ، وتقرأُ الكتابَ للسائحِ الأعمى. هل أُسيءَ قصدُها؟ هل هو البئرُ في الوصول إليه؟ تاريخُنا ورقٌ ومحبرةٌ وعميان. كم قيثارةٍ أحرقَها الحبُّ؟ هل وصلتم إلى غبارنا أيها العابرون؟

لا نعرِفُ أجابَه أحدُ العميان.

في كتابه مصادفاتٌ غريبة للمرّةِ الثانية يرى الطفلُ أن صورتَه صورة عابرة، وحياته زَلَّة لِسانٍ، صاحبُ الأقدام المتورمة، حملوهُ من بلادٍ إلى أخرى، في يدهِ مرآةٌ يلطخُها حبرُ الحكاية.

في لحظةِ الإصغاءِ، يتساقطُ التفاحُ ألفَ ليلةٍ وليلةٍ ليصلَ إلى عقلِ قلبِها،

في ليلةٍ حمراءَ تبعثرتْ قلادةُ الأرملةِ فروّضت انتظارها. عويلُهُ لا يهدأ، يتهدَّلُ قلبُه.

يُصغي لهلوسةٍ سوداءَ، يُصغي لنبوةٍ في أدراجِهِ فيثرثرُ عنها كثيراً، ليلتقطَها صديقٌ عابرٌ، ويُخفيها في النبع. في ليلةٍ حمراءَ، الأرملةُ تحكي لمرآتها حكايةً اسمُها لعبةُ الصبرِ، تنبضُ حروفُها في دم القتلى على رقعة الشطرنج.

في كتابهِ مصادفاتٌ غريبةٌ، قاطعُ طريقٍ يصلُ جسرَ المدينةِ فيراهُ الحرّاسُ ملكاً، يمضي في التأمُّلِ، فيتذكرُ أنَّهُ الأعمى الذي كان يحلمُ بهِ، يسمعُ أمَّهُ من وراء الحائط تحكي عن يأسٍ ينام في سريرها، يقفُ لينتظرَ أن ينهضَ من رماده مرّة أخرى.

يقولُ لشيخهِ: رقاصُ الساعةِ عاطلٌ، وشتاؤنا طويل هذه السنة. وفي كتابكَ مصادفاتٌ غريبةٌ، رأيتُ أن الصورةَ صورتي فتماهَيْتُ معها. هل أُمسكُ وجوه أحلامي؟ غرابٌ في كأسي، جمرةٌ في مرآتي، أصغيتُ لبريق شيخي ومقبرتِهِ في وادي السلام، وجدتُ لكلِّ جرحٍ قناعاً، في عيني صورةٌ لذكرى الكبشِ الذبيح. مرّ عليّ واقترحَ صورةً أخرى لمصيري. صورٌ من غَلْطَةِ الْعُمْرِ، تتموَّجُ في رأسي، ضجةُ النبعِ، رائحةُ الصحراءِ، دروعُ العبيد،

صبيانٌ يحملونَ المرايا في بيتٍ لهُ كتابٌ سمين. لفرطِ عماه، قتل أباه، بسم الله. بسم الله...

إذ تعرّتْ صاحبةُ المـرآة، وهـي تقرأ لـه، فيُصغي لعريها، تنزلُ الى الأعماق، تقرأُ وتقرأُ في الكتاب، بأسنانِها القويةِ تطحنُ كلَّ كلامٍ، كلامِ الطفل، كلامِ الحرّاس، كلامِ الحبِّ، كلامِ الشعراء، كلامِ النساء، وكلامِ العُميان، لَعِبتْ بروحهِ لُعبةَ اليأسِ والأملِ، رفعتْ حيرتَه لافتة سوداء على الحيطان تهتُفُ باسمه، بسم الله، بسم الله، حينها بسطَ الصيادونَ شباكَهم، وربطوها للمشحوفِ طافيةً على سطح المياه وغادروا حائرين. بسم الله، بسم الله.....

بعدها تقدّم الراوي ليزيح الستائرَ عن هذا الظلام.

حزيران ١٩٨٧

نسخة أولى

جثثٌ وراء البيوت

البياضُ تكرِّسُهُ الأبديةُ، السوادُ يكرِّسُهُ الزوالُ.

في جادَّةِ الحياةِ التي تجتذبهُ. رأسُ الملاكِ يتبعثَرُ، حتى أن الرفيفَ يبقّعُ الجدرانَ. الحياةُ في غلطتها، سقطتْ في البئر، في الطريقِ جثثٌ مجهولةٌ من رؤوسِها يدخنُ العدمُ. في ظلمتِها يحملُ مصباحَه باحثاً عن كفِّ أخيهِ. بعد القتيلِ لا رمزَ لَه. من يمحو اسمَهُ من على أشجارِ السنواتِ؟ لذا ظلَّتِ الأرملةُ تُحصي جمراتِ فقدانِهِ على أصابِعِها حينَ أغلقتُ النوافذَ، سَكَبتِ الماء على النارِ لتقضي ظلامَها في نقلِ أحاديثِهِ إلى رفوفِ النوم، حينَها لاحظتْ أن الشمعةَ الوحيدةَ تسيلُ فضتُها خلفَ السوادِ.

الأبديةُ لم يمسكْها فخُّ الحياة.

والذين نَسَوا قاتلَه تفرّقوا دخاناً بينَ عينيها. ذكراهُ نقشٌ على الحجرِ. من يَنْكُتُ بذورَه في قارورتِها، من يجمَعُ ماءَهُ لحفرتِها؟ تظهرُ في البرقِ

صورةٌ للقتيل، وحرفٌ له في الحبر، على الشجرةِ بومةٌ بيضاءُ تضيءُ ليلَ الخرائبِ.

غريبةُ الأطوارِ رابَطَتْ قربَ جثةٍ في العراءِ، هذه الذكرى تجتذبها لهذا الظلامِ. كلُّ صوتٍ يُصغي لقتلِهِ، وهذا غرابٌ على الأسلاكِ. ما مِن أملٍ أن ينتحرَ في أعالي الخريفِ المحاصرِ. كان من هُيامِهِ الطيرانُ طويلاً وراءَ ريشِ العدمِ.

الزوالُ طائرٌ تطلقُهُ فخاخُ المتاهتين.

تَلبَّسَهُ السؤالُ، قادهُ إلى ملاقاةِ حتفِهِ قبلَ أن يشربَ نهرَه، نسَجَ الأرواحَ بساطاً لطي السماءِ. يهبطُ وبينَ جذبٍ وطردٍ، يبسِطُ قلبَهُ ويهيمُ بينَ الغرباءِ. هو بلبلةٌ في برجِ الأبديةِ، أباحَ كلماتِهِ حشدٌ من الأدلّاءِ، بينَ عامٍ وعامٍ شدّتِ القوسُ وترَها فتحولوا من حالٍ إلى حالٍ. لأجلِ نبعٍ فجّرَتْهُ الهاويةُ يقدِّمُ مفاتيحَ أسراره لسنواتٍ قادمةٍ ستمضي. في العاصفةِ من على بساطِهِ يخطُّ رسالةً وحيدةً لأخِلّائِهِ المنتظرينَ على الجبل، جثثٌ مجهولةٌ وراء البيوت، سنسيرُ بها في الطريقِ إلى وادي السلام.

السواد حبرٌ يثرثرُ عند طيّاتِ الهاوية.

لمْ تكنْ هنا مآذنُ عاليةٌ سوى الغربانِ على الأسلاكِ. جثثٌ كثيرةٌ. جثثٌ كثيرةٌ في الطريق. رؤوسٌ يتلقفها الصبيةُ ويترامونَ بها في المساءِ، بومةٌ على

الشجرةِ تضيءُ الخرائبَ، رأتْها الأرملةُ وهي تهيمُ في صحراءِ بغدادَ، رأتْها صورةً في البرقِ، عراكاً بينَ اثنينِ، ضجةً لرأسينِ مقطوعينِ. من العشرينَ إلى المعاركِ الأخيرةِ، روحاهما تفتحانِ المتاهةَ طيّةً طيّةً لآخرينَ رحلوا قبلَ هذا النوم. من العشرينَ إلى المجهولِ يجرُّ حبالَ أحلامِهِ على سطحِ العالمِ. هل كانتْ شعلةٌ في يدِهِ تحرقُ رؤوس الضحايا فوق سروج الخيول بين غيوم السماء، وترميها في المتاهات الثلاث؟

الكلماتُ

والحربُ

والحياة.

اللغةُ تلطّخُ حياتنا بدم القتيل.

القتيلُ فضيحةُ الكلماتِ. في ذاكرةِ حربِهِ تتوهجُ الأسرارُ. تذكّرتُ أخلاءَهُ الذين جالوا وتشتتوا ينتظرون. بين جذبٍ وطردٍ ينطمرونَ عميقاً، وهو يجمعُ أرواحَهم ويطيّرها. بين جذبٍ وطرْدٍ بَقوا على الساحلِ يتفرجونَ ولم يُنقذوا أحداً. في سوادِ نهارٍ طويلٍ، جثثٌ وراء البيوت، تتحدَّثُ لهم عن لحظةِ الذبحِ، تتحدَّثُ لهم عن لحظةِ الحمامِ وهو يحترقُ فوقَ لَهَبِ العدمِ. لا لأنَّها حزينةٌ ولكنَّها تجلسُ بوداعةٍ تحت قوسِ غفلتها وتتذكّرُ جمرات الحرب، جمرةً جمرةً. لا أحدَ يراهُم في المخابئ، الأرواحُ تطوفُ فوقَ الشجرةِ، والبومةُ تضيءُ ليلَ الخرائبِ. وعلى الشواهدِ منديلٌ يرفرفُ

للقادمين إليها. بعثرتْ أوراقَه مع هبوبِ الريشِ. وأسالتْ روحَهُ في خطى الهواءِ ثم قالت: هو أصدقُ واحدٍ في هذه الظلمةِ وأقوى من إلهٍ. سيبقى يطيرُ، يطيرُ منتظراً في وادي السلام، وتحته نيامٌ بلا أجنحةٍ ولا حرب.

الأبدية يكرِّسُها السوادُ، الزوال يكرّسُهُ البياضُ.

آذار ١٩٨٧

سواد الحرب
- تنبغي قراءة ابن آوى

ماذا سأقولُ؟

يتكرّرُ نهرٌ قُربَ حصاري، قُربَ قبرٍ في وادي السلام، تنهارُ مناراتي، شرفاتٌ، بيتٌ، للقلبِ نهارُ صراخٍ سيقوم، تتناءى الأنهارُ، وتحطّ نجومٌ في أحلامِ دمائي، هل تشربُ دهشتَها الأجراسُ؟ في كلّ سؤالٍ من ريشِ وقتٍ وغبار. يتهادى في قمحِ الجمر ظلامٌ، طرقٌ تلبسُ صمتَ القَشِّ، وهناك صهيلٌ، قبل جنونِ الأرضِ الآن، يهبطُ من برجِ الريحِ على غصنِ القلبِ، يجفُّ يمامٌ، نبذٌ سيجفُّ، نهرٌ سيجفُّ، في منعطفِ المرآةِ هباءٌ، قربي نارٌ وسوادٌ، في نهرِ الأفقِ تجفُّ عظامٌ، ينمو في ضوءِ الأثداءِ ندى، في موتي، في ضوئي، في مرآتي، سيجفّ غمامٌ وكلامٌ، لسؤالٍ يُكتبُ فجراً، عَشَّبَ ليلٌ، وطواويسُ تموءُ، عشَّبَ قلبي موتاً، هل عَشّبَ في كفيّ نداء؟ شمسٌ تحتي وبكاءٌ، فوقي في الأفقِ دمٌ، قرب طريقِ البرقِ ذئابٌ، هل كنتُ بقايا من

تحفٍ، فخارٍ، ونحاس؟ كأنّ جنوني أهوالٌ أَصعدُ فيها، وكأنّ النملَ وعولٌ، وكأنّ ظلامي ضوئي، وكأن مراثي النارِ بقولٌ.

ماذا سأقول؟

لمن تعطي شرري؟ لا نجمَ أكثر ضوءاً من موتٍ يُهديني في المدينةِ الفارغةِ، تُهديني الموجةُ وطيرُها، لا سمعَ أعمق من الإصغاء لهذا الرفيف.

ماذا سأقول؟

أنظرُ في المرآةِ، لأعرفَ هذا الاسمَ. ذئبٌ حجريٌّ يتعرّى، يذهبُ خلفَ الجدرانِ هناك هل تُفتَرَسُ الأغنامُ بهدوءٍ مدروسٍ؟ هل الإنسانُ كالدِّيكِ لديك؟ يأتيكَ كناري الوديانِ وفرائسُنا أكثرُ فوضى، أجسادٌ في ضجرٍ تتناثرُ، يأتيكَ الكروانُ، ودجاجُ الأهوارِ غداً فَرَبَكَ يحتفلُ خلفَ القوسِ الأعمى، تتهادى تتبعُكَ الأفخاذُ، الأفراسُ. بهدوءٍ صفّ لي قلبَ الموتِ حواليك، أينَ الظلُّ المجنون؟ أبرِّقُكَ أعلى في عدساتِ الوقت؟

ماذا سأقول؟

من ينقذنا؟

هناك ألغازُ القبورِ تنتشي، هناك الهائمون يخفيهم القشُّ، وقلبي الذي صار رماداً وأكياسُ الأعضاءِ المبتورةِ تتعفنُ قربي، والطُّحلُبُ الذي فكّ

رموزَ الشاطئ الآخر. هناك ذرةُ رملٍ تتحدثُ عن النومِ المبكِرِ على خدِّ الغنائمِ التي تفتحُ حناجرَنا لصرخةِ القبّرة.

ماذا سأقول؟

هل يدخل هذا الذئبُ مخالبَ موتٍ في قلبي؟ هل رئةٌ للنهر فضيحتُنا؟ هل يدخلُنا، بيتاً بيتاً؟ يرفع أثداءً تصهلُ وطواويسَ تموتُ وهاويةً تعلو.

ستموتُ الآن لكن نبقى نتلاقى في مكان.

آب ١٩٨٦

حياة على جبل أجرد

في الجنوبِ من هذا الجبل، في الجنوبِ منّي ينتشرُ البياضُ، كسائرِ الأكفان. أستعيدُ المصباحَ لأرى طريقي، أقطفُ عشبةً، وأحلمُ بالخلود، الغرابُ هادنَ القاتل ونسي أخي القتيل.

أعمى يستدلّ برأسِ المرأةِ الصغيرةِ التي يكتظُّ في بيتِها الخصوم.

حياتُنا زَلَّةُ لِسانٍ

لا طريقَ لنا في المتاهة.

جننتُ بحبرٍ يتمرّد بين يوم وآخر، اقتربتُ من يوم الحصاد الأكبر، في الأيام التالية، نزلتْ على رأسي ألف ليلة وليلة من الحرب حتى تبعثرتْ قلوب الأرامل في الطريق.

في الجنوب منّي، في تلك الليلة السوداء، روضتُ انتظاري الذي يجتذبه منفى الأشقاء. هنا الموت لا يملّ من عصيان الأرواح.

في يوم مقتله، أرخى العالمُ ستاره، واستبدّ بالحياة الظلامُ.

قلبه تشظّى تحت المصباح، الجمرةُ وصلتْ الى الدم، العاصفةُ طيّرتِ العظام.

موتاي في الوادي، خوذةٌ على خوذة، حطّتِ الطيور فوضعتْ بيوضها في الجماجم. الذين ادعوا البراءة، ناموا تحت التراب بعد حين.

يلتقطُ الغراب قلبي ويطير، عين بالقرب من الضفة الأخرى، في النبع الذي ينبضُ لحظته في صحراء الأسلاف، تضيع الأيـام يوماً بعد يوم. يتنحى الأمل الذي فرّ وطار نحو أشجار بعيدة، وهو يحكي عن الألم الأسود، حينما القاتل يدفن نفسه.

الأحلام لم تصل إلى نومنا، طاووسُ المهزلة يتبختر فوق الخرائب، في الفخاخ يسترخي المصير، وهو يقتنصُ أرواحنا، رقّاص الساعة المكسور، مثل صيّاد صادهُ الندم، الطرائد، والجمرات، الشظايا، والحطام، حكاية الغراب، الشرفة الثملة بالسرد، كلها في الحديقة الخلفية للحياة.

أهذه رحلة أم حرب؟

تدحرجتُ من قمة الجبل

الى سفوح الجنون.

معي مشعل الحرية، أحصي تخومَ الخيال، وأقصدُ غيمةَ الله التي غطّتْ قبر القتيل. لم أرتجفْ، لكنّ رأسي ارتطم بجثّة أخي، ارتطمَ برأسهِ المقطوع، وهو يتدحرجُ نحوي، بعيداً عن جسمه الراكض إلى الأمام.

دفنتُ الضوءَ تحت الرمال، وهذيتُ: صرتُ أحكي بلا معنى، الأفواهُ

مقبرةٌ للنبات، الغرابُ جرحُنا، شعلةٌ على الجبل، هي تعويذةٌ في عنق الحرب، البياضُ بطةٌ نذبحُها، ونتهادى حول دمِها الأسود، تحملني اللحظةُ في ألمٍ فظيعٍ، بالقرب منها سأهوي الى الوادي، وادي السلام، سأهوي طويلاً مع اللعبة، إنه جبل قديم تحمله حياتي، يمشي معي، يلعبُ، يلهو بمصيري.

فضيحة سفوحه عالياً تناسلتْ، حينما فرّ الطائر من نافذة الحياة.

تموز ١٩٨٦

الفهرس

نسخة ثالثة

حياة على جانب النهر ٩

بيت فوق طيران الصقور ٢٠

حرب واحدة ٢٨

نسخة ثانية

صورة واحدة لنصف حياة ٣٩

بيت في بحيرة سيروان ٤٧

حيرة قارئ الحرب ٥٧

نسخة أولى

جثٌ وراء البيوت ٦٥

سواد الحرب – تنبغي قراءة ابن آوى ٦٩

حياة على جبل أجـرد ٧٢

زعيم نصار... منفصلاً عن الأهواء العامة

الغريبُ في هذه الكتلة النثرية المتدفّقة بسردها الغرائبي، أنَّ كاتبها طائر محلّقٌ يرى سماءَهُ وأنثاهُ وصيدهُ، كما يرى بؤرة روحه.

ونادراً ما نلقى مثلَ هذا القناع في شعرنا الذي يذهبُ أكثرهُ الى اللوّعة الشخصية، والمناجاة، أو التحدّي.

قصيدةُ زعيم تتحدّى العمومية والرضا والقبول العام في الكتابة. هذا القدر من الذكاء المحموم بالتجديد، يُحيلنا الى تجريبيةٍ تسْتلهمُ الطبيعة والكائنات في اتحادها المطلق، وهيَ في جوهرها قصيدةُ حبّ استثنائية.

زعيم نصّار شاعر مجرّب ومجدّد في هذه النصوص، معتمداً كفاءة ذاتهِ وروحانيتهِ التي تميّزهُ كشاعرٍ مُنفصلٍ عن الأهواء العامة.

جليل حيدر

AL-RAWSAM
الرّوسم
للصحافة والنشر والتوزيع
شارع المتنبي - مجمّع الميالي التجاري
هاتف: 07714247592

منحوتة الغلاف للفنان البولندي إيغور ميتوراج

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح